جامعة الجيلالي بونعامة –خميس مليانة

الملتقى الدولي : الكتابة بالسخرية

يوم 24 جوان 2024

الاسم واللقب : إيمان بوقردون

جامعة الانتماء : جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة .

كلية الآداب والحضارة الإسلامية .

قسم اللغة العربية

الرتبة : أستاذ محاضر – أ –

البريد الالكتروني : imenbouk319@gmail.com

عنوان المداخلة : السخرية وعلاقتها بمقصدية الخطاب في الأدب العربي القديم

الملخص :

تأتي السخرية "على رأس الأساليب الفنية الصعبة ، إذ إنها تتطلب التلاعب بمقاييس الأشياء تضخيما أو تصغيرا أو تطويلا أو تقزيما ، هذا التلاعب يتم ضمن معيارية فنية هي تقديم النقد اللاذع في جو من الفكاهة والإمتاع " وهو ما جعلها تصطبغ بصبغة الرمزية من جهة ، وتتبوأ مكانة كبيرة في نفوس المتلقيين عبر العصور من جهة أخرى .

وصعوبتها تكمن في غايتها التي تحملها ، فالأدب الساخر مثلا لم يكن يوما من أجل الإضحاك فحسب، بل كان الإضحاك قناعه الذي يتوارى خلفه ليوصل مبتغاه وقصديته **سياسية** كانت أو **إيديولوجية** أو **حضارية**، ويكثر الأدب الساخر بكثرة الأحداث والتغيرات والتشويشات التي تحدث في المجتمع والتي تعد الأرضية الخصبة لتحريك ملكة التهكم والسخرية ..ولعل هذا الكلام ينطبق وبشكل كبير على العصر الأموي والعباسي وما فيهما من تحولات في حياة المجتمع العربي .

وسيتم الوقوف في هذه الورقة البحثية عند نماذج لجأت إلى السخرية كشعر **النقائض** والشعر **السياسي** وشعر **الشعوبية** و**السجالات بين العلماء** وغيرها من الموضوعات التي جمعت بين الفكري والجمالي في قالب ساخر .

الكلمات المفتاحية : السخرية ، قصدية الخطاب ، الأدب العربي القديم

Abstract:

Irony comes "at the top of difficult artistic methods, as it requires manipulation of the standards of things amplified or minimized or lengthened or dwarfed, this manipulation is within the standard of art is to provide vitriol in an atmosphere of humor and enjoyment," which made it stained with symbolism on the one hand, and occupies a great place in the hearts of recipients through the ages on the other hand.

And its difficulty lies in the end that it carries, satirical literature, for example, was never for the sake of laughter only, but laughter was a mask that hides behind it to deliver its goal and intention political, ideological or civilized, and satirical literature abounds in the abundance of events, changes and distortions that occur in society, which is the fertile ground for moving the queen of sarcasm and ridicule. Perhaps this applies to a large extent to the Umayyad and Abbasid periods and their transformations in the life of Arab society.

In this research paper, we will stand at models that resorted to irony, such as the poetry of contradictions, political poetry, the poetry of populism, debates between scholars and other topics that combined intellectual and aesthetic in a satirical form.
Keywords: irony, intentionality of discourse, ancient Arabic literature .

مقدمة

تعد السخرية فنا من الفنون التي تزامنت و والوجود الإنساني، والذي جبل على حب المرح والبحث عما يبهج روحه، وتتعدد أساليب السخرية وأبعادها، فتأخذ أبعادا نفسية وأخرى اجتماعية وفكرية ... ، وتتعدد أيضا مقاصدها باعتبار أن السخرية نقد غير مباشر أو رفض لوضع معين ، رفضه العقل فجاء خطاب السخرية حاملا هذا الرفض في ثوب لغوي تستتر من ورائه المقاصد والغايات ...

ولعل أفضل أنواع السخرية السخريةٌ الخفية التي يدسها صاحبها دسا ، يترك فيه المجال للمتلقي/القارئ بأن يكشفها ويبني على أساسها قناعاته وتوجهاته، وقد كثرت الكتابة بالسخرية في أدبنا العربي القديم ، وحمل لواءها كثيرون ممن اختلفت غاياتهم ومقاصدهم بين الإضحاك ، وبين بث الرسائل الرمزية المتخفية وراء قناع السخرية ، وهو موضوع ورقتنا البحثية هذه ، والتي تحاول الإجابة عن أسئلة أهمها : ما طبيعة الكتابة بالساخرة في أدبنا العربي القديم ؟ وما الموضوعات التي ارتبطت بها ؟ وما الأساليب التي لجأ إليها أصحابها من أجل تبليغ غاياتهم و مقاصدهم ؟

أولا : الكتابة بالسخرية : المصطلحات والحدود .

– مفهوم السخرية بين اللغة والاصطلاح :

تقاربت معاجم اللغة في تعريفها للسخرية ففي اللسان وتاج العروس والصحاح والمعجم الوسيط جاءت الكلمة بمعنى الإضحاك و الاستهزاء والتذليل والاحتقار[1].

أما في الاصطلاح فجذور كلمة "السخرية" تعود إلى"أصول يونانية الإيرونيا eironia ، وهي وصف للأسلوب في كلام إحدى الشخصيات بالملهاة اليونانية القديمة —إيرون– وقد تميزت بالخبث والدهاء "[2] .

وقد عرفت حديثا على أنها " أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر، وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتب الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهي حينئذ تكون تهكما أو تقريعا خالصا " [3]

وإذا بحثنا عن معنى كلمة السخرية في تراثنا الأدبي القديم والنقدي تحديدا فسنجدها متداولة بمفاهيم أخرى على رأسها مصطلح "التهكم" والذي اعتبره شوقي ضيف "لونا من ألوانا السخرية"[4].

وفي هذا الصدد يتحدث ابن سلام الجمحي في طبقاته فيقول "كان من الشعراء من يتعفف في شعره ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهكم في الهجاء " [5] والذي نستشفه من هذا الحديث عن التهكم أنه " معنى أخلاقي أكثر منه معنى فني أدبي ، وهناك فرق بيَّن بين التهكم كمصطلح وطريقة التهكم وأسلوبها " [6] .

وقد ورد هذا المصطلح بما يشاكله ويكون مرادفا له من ذلك ما أورده ابن المعتز في كتابه البديع " حين أورد من المحسنات البديعية كتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والهزل الذي يراد به الجد ، وهي تدخل ضمن صيغ السخرية لكن دون قصد صاحبها أن يتناولها من زاوية الهجاء الضاحك أو غير المباشر" [7]

و ظهرت بعده الكثير من المؤلفات البلاغية والنقدية التي تشير إلى معاني الهزل والتفكه والتندر والإضحاك ككتاب العمدة لابن رشيق ، والكناية والتعريض للثعالبي وقبلهما كتاب نثر الدرر للآبي والذي تكلم فيه عن المزاح وجمع فيه ما أثر عن الصحابة و والخلفاء والطفيليين من مواقف الطرفة والنوادر والأجوبة الساخرة والأخبار والقصص تحت اسم المزاح " دون محاولة الكاتب التمييز بين المزاح الرامي إلى الإضحاك أو النوع الثاني من السخرية والذي يعني النقد الرمزي الضاحك "[8]

- **مقصدية الخطاب :**

إن القصد من الخطاب هو أساس عملية التواصل ، و هو الذي يحدد الطريقة التي يكون عليها، إما خطابا عاما أو خاصا، مباشرا أو ضمنيا... ، فترتبط اللغة بالموقف الذي أرادت التعبير عنه ، ولا يوجد نص يخلو من القصدية أو المقصدية ، ويتدخل السياق حتما في تحديد طبيعتها وخصوصيتها ومدتها وشكلها وطريقة إنجازها...

ولا يقتصر هذا المفهوم على الخطاب والنص فحسب ، وإنما المقصدية أبعد من ذلك وهو ما ذهب إليه الفيلسوف الأمريكي جون سيرل –والذي هو من أبرز أعلام هذه النظرية –حين قال " لكي نفهم حياتنا علينا أن نفهم القصدية " [9].

ثانيا : الكتابة الساخرة في الأدب العربي القديم : النشأة والتطور

إن ميل الإنسان إلى التفكُه والتندر والسخرية غير مقترن بعصر دون غيره ، فهي حاجات نفسية اقترن وجودها بوجود الإنسان نفسه ، وبحاجته إلى الضحك و الترويح عن النفس ..

وإذا عدنا إلى العصر الجاهلي وجدنا معاني السخرية تتردد في أشعارهم ، ومن ذلك ما يروى من أبيات تهكمية أوردها عبيد بن الأبرص و قالها في كندة وملكها حجر وامرئ القيس الذي سخر منه وعيره بالهرب ، قال : [10]

هل سألت جموع كنـــــــ دة يوم ولوا أين أينا

أيام نضرب هامهـــــــم ببواتر حتى انحنينـــا

بل وفي أمثالهم وحكمهم أيضا ومن ذلك تهكمهم ممن لا رأي له ، فيتكلم مع كل متكلم ويجيب كل قائل ، فكانوا يقولون " بنت الجبل " وأصله الصدى الذي يجيب المتكلم في الجبال ، وما يجري مجراها، وأما ما يتبع كلا على أمره فهو إمعة ، وقد قيل تندرا في الرجل كثير الكلام[11] :

أسكت لحاك الله من أخرس لا يفهم الناس ولا يسكت

يجري مع النطاق مثل الصدى لا يحسن القول ولا يصمت

كما لجأ الشعراء في العصر العباسي إلى تصوير معاناتهم وأوضاعهم الاجتماعية في قالب ساخر ، ظاهره تندر لكنه يحمل كثيرا من الأنساق المضمرة الدالة على ما تعانيه هذه الفئة من اضطهاد، وقد عرف هذا الشعر بشعر التطفيل و الكدية والتحامق ومما جاء فيه :

- **التطفيل :**

من خصائص شخصية الطفيلي الذكاء و الخفة و الهزل وحضور البديهة و سرعة الجواب وحسن المظهر؛ وقد جمع لنا هذه الصفات طفيل بن دلال الهلالي رأس الطفيليين يوصي ابنه عبد الحميد عند موته في مقطوعة قال فيها [12]:

لا تجزعن من الغريب ولا من الرجل البعيد

وادخل كأنك طابخ بيديك مغرفة الحديد

متدليا فوق الطعـا م تدلي الباز الصيود

لتلف ما فوق المو ائد كلها لف الفهود

- **الكدية**

يتداخل مفهومها مع مفاهيم عدة للتلصص (كالحيلة و المكر والبراعة) ويشترط في شخصية المكدي براعة التمثيل والبلاغة و العلم و الذكاء لكنهم معسورون فقراء ، يقول أحدهم في ذات السياق[13] :

يا فاضـــلا قد تبـــدى كأنه الغصن قدا

قد اشتهى اللحم ضرسي فاجلده بالخبز جلدا

وامنـــــــن علي بشيء واجعله للوقت نقدا

وشعر هؤلاء لا يخلو من نقد الأوضاع السياسية و الاجتماعية في قالب تغلب عليه السخرية ؛كقول أحدهم[14] :

صبرا على الذل و الصغار يا خالق الليل و النهار

كم من حمار على جـــواد ومن جواد بلا حمار

والملاحظ أن خطابات السخرية في أدبنا العربي القديم كانت " تأتي عفوية تارة ، أو لغرض من الأغراض تارة أخرى، دون أن تقوم على التحليل أو التصوير أو التشخيص "[15].

ومن أوائل المؤلفات التراثية التي تصنف ضمن كتب الأدب الساخر :

- **كتاب أخبار الأكلة للميداني[16]** : وهو كتاب نوادر يبدو أنه مفقود لكن يظهر من تسميته أنه كتب "تجمع فيه أخبار من نهمته في المآكل والمشارب، ومن ابتلي بحب المآكل والتوسع في ذلك "[17] ولا شك أن هذا المؤلف وما شاكله يجمع من أخبار هؤلاء في شكل مرويات يغلب عليها التفكه والإضحاك .
- **لصوص العرب لأبي عبيدة[18]** وهي من التآليف التي أثارت العرب ضده خاصة أنه جاء في مقابله كتاب " فضائل الفرس " ولعل "كره أبي عبيدة للعرب هو ما دفعه إلى ذلك"[19] .

ويذهب الدارسون إلى أن الجاحظ[20] هو أول كاتب يؤلف في أدب السخرية التي يربطها بالمجتمع تحليلا ودراسة ككتاب البخلاء ورسالة التربيع والتدوير وغيرها ..ما يعني أننا نستطيع القول إنها تحولت إلى ظاهرة في العصر العباسي ما استدعت أن تخصص لها المؤلفات ، وما كتاب "البخلاء "إلا واحد من هذه المؤلفات التي وقفت عند صفة البخل وأفردت لها صفحات فيها من التحليل النفسي ومن ورائه النقد الاجتماعي الشيء الكثير..

- **الكتابة بالسخرية عند الجاحظ : الخصائص والامتداد**

تتميز الكتابة بالسخرية عند الجاحظ بخصائص جعلت منه رائدا هذا الاتجاه في الأدب العربي ، فالجاحظ كان يحب الضحك والإضحاك بل يجد له مبررا وتفسيرا من كلام الله تعالى يقول " وهو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح " [21]

وقد أثرت عوامل نشأته في شخصيته وميله إلى الإضحاك والسخرية ، بدءا بوراثة هذه الصفة من أمه كما تروي الكتب التي ترجمت له إلى نبوغه في العلم وصولا إلى تأمله في أحوال المجتمع في العصر العباسي وقد وجد فيه شيء من كل شيء .

لهذا نجده ينقد هذا المجتمع في قالب ساخر واقفا عند أهم ما ميزه من نقد العلماء في عصره ، ورفضه الخرافات والاستخفاف بعقول الناس، وكذا الظواهر التي تفشت في عصره مثل البخل والجبن والتغافل واللصوصية وغيرها...

أما أسلوبه في ذلك فمزيج من اللغة الرصينة القوية ، والجنوح إلى الخيال ، والحجج القوية ، والتحليل النفسي والاجتماعي للظواهر وغيرها .

أثر هذا الاتجاه في الكتابة بالسخرية فيمن عاصر الجاحظ ومن جاء بعده كابن قتيبة وغيره ، وامتد أثره من المشرق إلى الأندلس كأبي حيان التوحيدي وابن شُهيد صاحب التوابع والزوابع وابن برد الأصغر صاحب "رسالة النخلة " وابن زيدون صاحب "الرسالة الهزلية "، و "المنامات" للوهراني في المغرب العربي وغيرها ... وكلها قد تأثرت بكتابات الجاحظ إن قليلا أو كثيرا .

ثالثا : السخرية وعلاقتها بمقصدية الخطاب .

1- الصراعات السياسية وقناع السخرية

عرف عن عصر بني أمية أنه عصر اضطرابات وفوضى سياسية ، وقد انقسم المجتمع إلى فرق دينية وأخرى سياسية ، واتُخذت ألسنة متباينة تدافع كل منها عن مذهبها وتوجهها، وتطعن في الفرق الأخرى وتتخذ لذلك الحجج والبراهين التي تجعلها سلاحا في وجه المخالفين وذريعة لإقناع المتلقي ، حتى تحولت هذه الصراعات إلى مادة أولية تنظم فيها القصائد وتنسج حولها المرويات حقيقية كانت أو متخيلة .

وقد جاء الشعر السياسي على رأس هذه الأغراض ، و كان مرآة عاكسة للعصر وتجاذباته ومذاهبه ، واقتضت سياسة الدولة رواج هذا النوع من الشعر لما اعترك في ميدانها من صراع بين الأحزاب والعصبيات، بل غدا سلاحا بيد الشعراء يدافعون به عن توجهاتهم السياسية، يتبارون فيه ، ويسعون من خلاله إلى إظهار مقدرتهم البلاغية ، وكانت السخرية إحدى وسائلهم من أجل الحط من قيمة الطرف الآخر ..

ومن ذلك قول الكميت بن زيد في دفاعه عن الهاشميين وأحقيتهم في الخلافة ، الشيء الذي جعله محل سخرية عند خصومه ؛ قال [22]:

يعيبونني من خبثهم وظلالهم على حبكم بل يسخرون وأعجب

ومن الأغراض الشعرية التي ظهرت في العصر الأموي واتخذت الهجاء والسخرية اللاذعة وسيلة لها شعر النقائض ؛ وهو شعر تمخض عن اضطراب الأحوال السياسية والتي أدت إلى نشأة الأحزاب والتفاف الشعراء حولها .ناهيك عن العصبية القبلية التي اشتعلت من جديد في عصر بني أمية بعد أن خمدت نارها في عصر صدر الإسلام .

ولا ننسى العوامل الفنية التي تقوم على قيمة الشعر والمفاضلة بين الشعراء، فقد قيل " إن الفرزدق ينحت من حجر ، وجرير يغترف من بحر "[23] وساعدت هذه الشرارة على اشتعال الحرب ، فقد جاء هذا الحكم النقدي في قالب ساخر حط من قيمة جرير وأثار حفيظته .

وبالرغم مما تميزت به النقائض من تصوير مثير وخيال خصب أين تبتكر الصور ويبالغ في المعاني وتخترع الوقائع والأحداث .وبالرغم أيضا من ميلها إلى الاستقصاء وحشد الأيام والحوادث والأسماء ما جعلها سجلا تاريخيا لصفات القبائل وأيامها بل أضحت تعد " وثائق تاريخية طريفة "[24]. إلا أنها لم تخل من سقوط المعاني وبذاءة الألفاظ إذ كانوا يفضحون بعضهم دون خجل ، ولا يصونون أعراضهم عن القذف ولا نساءهم عن الانتهاك فأفسدوا الأذواق إفسادا مخزيا ...

ومن الأساليب التي انتهجها هؤلاء الشعراء في سخريتهم من بعضهم البعض **وصف الخصم بالذل** والحط من قيمته ، وهو ما يتطابق مع تعريف أدونيس للسخرية حين قال هي " التذليل والاحتقار"[25] يقول الأخطل ساخرا من جرير في بيت كان وقعه عليه شديدا ، قال [26]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

ويأتي **الهزء بالدين والعقيدة** من أكثر الأساليب التي عمد إليها شعراء النقائض ، وخاصة جرير ، وكما سخر الأخطل من جرير لتعسر حاله ، وفقره بل وبخل أهله ، يسخر جرير من الأخطل الذي لم يهتد إلى الدين القويم ، يقول في ذلك[27] :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبريل وكذبوا ميـــكالا

كما يسخر من تدين الفرزدق ، فيقول [28]:

فإنك لو تعطي الفرزدق درهما على دين نصرانية لتنصرا

وحين قال الفرزدق في ميميته [29]:

تحن بزوراء المدينة ناقتـــــــي حنين عجول تبتغي البـــوارم

قال جرير في نقضها مستهترا بتدين الفرزدق [30] :

أتيت حدود الله مذ أنت يافـــع وشبت فما ينهاك شيب اللهازم

هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا مداخل رجس بالخبيثات عالم

لقد كان إخراج الفرزدق عنكـــم طهورا لما بين المصلى وواهـــم

ومن أساليب السخرية أيضا **الاستهزاء بالخلقة والتشبيه بالحيوان** ، وكأن جريرا يقصد قصدا بسخريته إلى الإضحاك وهو الذي قال " إذا هجوت فأضحك " ومن ذلك قوله [31]:

حتى سمعت بخنزير ضغا جزعا منهم فقلت أرى الأموات قد نشروا

أما الصراع بين الفرزدق وجرير فكانت السخرية فيه تتغذى على **تفاوت المرتبة الاجتماعية** بينهما، وها هو الفرزدق يعلي من شأنه ونسبه في فخر هو أشد مما كان عليه في الجاهلية بسبب إحياء بني أمية للعصبيات القبلية والنعرات الجاهلية ليشغلوا الناس عن الحديث في السياسة ، وفي المقابل يحط من قيمة جرير ومقامه متهكما متباهيا ؛ يقول [32]:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز و أرفـــــع

بيتا بناه لنا المليك وما بنى حكم السماء فإنه لا ينقـــل

بيتا زرارة محتب بفنائـــه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

أحلامنا تزن الجبال رزانـــة وتخالنا جنا إذا ما نجهـــــل

فيرد عليه جرير ردا تغلب عليه الألفاظ الهجائية المقذعة ، فلا شرف له ولا سؤدد ولا كرم يفتخر به ، قال [33]:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

ولقد بنيت أخس بيت يبتنى فهدمت بيتكم بمثلي يذبل

أحلامنا تزن الجبال رزانـــة ويفوق جاهلنا فعال الجهل

لقد أحيا بنو أمية العصبية القبلية بين الناس ليصرفوهم عن شؤون الحكم والسياسة ، نتج عنه هذا النوع من الأدب الذي عاش ما يقرب النصف قرن ، مما لا نجد له نظيرا في سائر عصور الأدب العربي .ولما اصطبغ هذا الشعر بصبغة التندر والفكاهة والسخرية اللاذعة أقبل الناس عليه إقبالا كبيرا، وتحول إلى مباريات أدبية في سوق المربد والكناسة ، تجتمع حولها الحشود ، وتناصر شاعرا وتناوئ شاعرا آخر...وقد لجأ شعراء النقائض في سبيل إرضاء متابعيهم إلى التفنن في التهكم والسخرية مستعملين في ذلك الألفاظ الهجائية المقذعة التي تتخالف ومبادئ الدين الإسلامي السمح .

- **الصراعات الحضارية وقناع السخرية .**

لطالما شكلت الصراعات الحضارية بين الأمم والشعوب والمجتمعات الإنسانية مادة خصبة يتبارى حولها المفكرون والأدباء والفلاسفة والعلماء، وتكون كتاباتهم بمثابة وسائل لتمرير آرائهم ومعتقداتهم ورؤاهم الثقافية ، بل وعاداتهم وتقاليدهم ومعايشهم

، ولذلك نجدهم يحفّون خطاباتهم التي تخدم توجهاتهم تلك بالعناية والدقة والتفنن من أجل إثارة الانفعالات الإيجابية لدى المتلقين، ويحركون الانفعالات السلبية بالمقابل تجاه ما يتنافى ومعتقداتهم وتوجهاتهم .

والمعتقدات الدينية تأتي في طليعة هذه الصراعات الحضارية ، فالاختلاف حقيقة موجودة منذ الأزل عبرت عنها الآية في قوله { **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم**} هود 118-، والاختلاف في هذه الآية " هو الاختلاف في الدين ". [34]

وقد جاءت الخطابات الأدبية محملة بالكثير من الحمولات الثقافية والفكرية التي تصور هذه الصراعات العقائدية منها ما جاء صريحا ، ومنها ما جاء في قالب أدبي فني شعريا كان أو نثريا ..

وكثير من هذه الخطابات اتخذت من السخرية وسيلة لتبليغ رؤيتها بطريقة خاصة من ذلك ما أورده الجاحظ حين قال " **كان عندنا نصراني في عنقه صليب ، وكان يقول لضعفاء الناس هذا العود من الخشبة التي كان المسيح صلب عليها ، والنار لا تعمل فيه ، فكان يكتسب بذلك ، حتى فطن له ، وعورض بهذا العود** "[35]

وقد عرف الجاحظ بإيراده لمثل هذه النصوص التي تكثر فيها الخرافات، ويستهان فيها بعقول الناس والضعفاء منهم على حد قوله ، وكذا دفاعا عن مذهبه وقد عرف بجدله في مثل هذه القضايا .

ومن ذلك أيضا "كتب الأخبار" أين تأتي النصوص السردية بتقنياتها المختلفة مبطنة برسائل مباشرة أحيانا، ومضمرة أحيانا أخرى... ومن أمثلة ذلك عيون الأخبار لابن قتيبة "فكثير من نصوص الخبر عنده مثلت إطارا سرديا استثمره من أجل توصيل رسالته إلى القارئ المفترض على نحو ضمني يتيح إقناعه بالمضمون الفكري والثقافي المندس في ثنايا الخطاب السردي " [36]

ومن أمثلة هذه النصوص التي يسخر فيها من أصحاب المعتقدات الأخرى حديثه " **عن أعرابي وُلي بعض النواحي فجمع اليهود في عمله وسألهم عن المسيح ، فقالوا قتلناه وصلبناه، فقال : هل أديتم ديته ؟ فقالوا لا ، فقال: فو الله لا تخرجون حتى تؤدوها، فلم يبرحوا حتى أدوها** "[37]

إنها طريقة ذكية لإظهار الاختلال العقدي عند أصحاب الديانات الأخرى ، الذين اختلط عليهم الأمر، وهذا القالب القصصي الساخر سيؤدي مفعوله ويؤتي أكله ويحقق الغاية بإقناع المتلقي بمدى اضطراب أصحاب المعتقدات الأخرى، فإذا تحققت الغاية من السخرية ألا وهي الإضحاك ، يكون صاحب النص قد نجح في توصيل رسالته ورؤيته وإثبات توجهه الديني باستثمار تقنيات القص من جهة ، وقوة وتأثير السخرية من جهة أخرى .

ولا يكتفي بالسخرية ممن يخالفه في المعتقد بل يهزأ حتى ممن يخالفه في المذهب ، وحتى يحط من قيمته ، ويصوره للقارئ على أنه لم يفهم مقاصد الدين ، ولم يفقه تعاليمه ، فيجعل الخطاب الساخر سلاحا له من أجل الانتصار لمذهبه ، ويستغل ما للسخرية من قدرة على التأثير في القارئ ، من ذلك الخبر الذي أورده عن " **كان مسلم بن أبي مريم– وهو مولى لبعض أهل المدينة وقد حمل عنه الحديث– شديدا على القدريّة عائبا لهم ولكلامهم، فانكسرت رجله فتركها ولم يجبرها، فكلّم في ذلك فقال :يكسرها هو وأجبرها أنا! لقد عاندته إذا .** " [38]

وفي إيراد مثل هذه الأخبار تهكم واضح من أصحاب المذاهب الذين لم يفهموا الإسلامي فهما سليما ، ولم يفقهوا مقاصده .

ولم يكن الشعر بمنأى عن هذا المعترك ، بل كان في صميمه، كيف لا والشعر ديوان العرب الذي طالما عبر عن رؤاهم وأفكارهم ، بل وحدد قيمهم التي يؤمنون بها.

ولعل الجانب الثاني من **الصراع الحضاري هو هذه القيم** ، الممثلة في عادات المجتمع وأعرافه، في قناعاته وتوجهاته، ولعل العصر العباسي هو أكثر العصور التي شهدت تحولات في المجتمع العربي، وعلى جميع الأصعدة ومنها الأدب الذي ما هو صورة للمجتمع ، وقد بدأ الشعراء ينسجمون مع تلك التحولات ، وينهجون أساليب عدة للتعامل معها رفضا وصدا أو ترحيبا و قبولا .

وكانت السخرية وسيلة من وسائل التعامل مع هذه التحولات، وكان لها حضورها في القصائد بدءا بالمقدمات التي أعلن فيها الشعراء تمردهم على الأعراف الاجتماعية والفنية وتحويلها إلى محطات للهزء والتهكم .

ومن أوائل الشعراء الذين سخروا من المقدمة الطللية – طبعا إذا استثنينا الكميت بن زيد الذي لم تلق دعوته الاحتواء– يطالعنا أشجع السلمي بأبيات يقول فيها [39]:

مالي وللربع والرســـوم هن طريق إلى الهموم
للحظ طرف وغمز كف وخمرة من بنات ريم
وروح ريحانة بمســـك تدعو نديما إلى نديم
أحسن من خيمة وربع تجرحه الريح بالنسيم

هذه الأبيات قالب ساخر عبر فيه الشاعر عن رفضه البكاء على الأطلال من خلال المقارنة والمفاضلة بين ما كانت عليه الحياة في الجاهلية وما آلت إليه من تفتح وحرية ...

وتوالت المحاولات في فرض هذا النسق الجديد في التعبير و الذي يتماشى والحياة الجديدة ، ويتخذ السخرية مطيته في ذلك ؛ منهم ديك الجن الحمصي ، والذي يهزأ من الذين يخاطبون الأطلال ويلقون عليها السلام ؛يقول[40]:

قالوا السلام عليك يا أطلال قلت السلام على المحيل محال
عاج الشقي مراده دمن البلى ومراد عني قلة وحجـــــال
لأغادين الـــراح وهي زلال و لأطرقنَّ البيت فيه غـــزال

ومن نموذج إلى آخر يشعر المتلقي أن خطاب السخرية يزداد حدة ، وكأن القصد منه هنا الاستهزاء– النموذج الثاني– من الأشخاص أكثر من الطلل — النموذج الأول– ما يعني هنا السخرية من الفكرة نفسها التي تجعل للطلل هذا القدر من العناية وهو محيل كما عبر عن ذلك الشاعر .

ولعل أهم من مثل هذا الاتجاه وجعل السخرية من معالم الحضارة العربية سمة مقدماته وقصائده الشاعر العباسي أبو نواس ، تحركه في ذلك شعوبيته وحقده الدفين على العرب " وهو أهم من حمل رايات الثورة ورفع شعاراتها، وقد استهلك جهده واستفرغ وقته في إذاعة تعاليمها" [41]متخذا في ذلك أسلوب السخرية القائمة على التجريح والتذليل ، يقول [42]:

قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جلس
اترك الربع وسلمى جانبـــــا واصطبح كرخية مثل القبس

وهزء الشاعر هنا من بكاء الطلل، وتحديدا من فكرة الوقوف ، التي هي عرف من أعراف المقدمات الطللية في الجاهلية ،وسواء كان وقوفهم حقيقيا أو مجازيا فإن وقوف الشاعر أمام هذه الأطلال إنما هو إجلال لها ، كيف لا وهي من صنعت ذاكرته ، بل لا يكتفي امرؤ القيس حتى يقف ويستوقف، ويبكي ويستبكي ؛حين يقول :

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويعزز أبو نواس سخريته بالأدلة العقلية؛ ويجعل لها من المشروعية حتى يقنع المتلقي ، ويثير انفعالاته، ويجمع حوله أكبر قدر من المؤيدين لفكرته ، فيقول [43]:

هل رأيت الديار ردت جوابا وأجابت لذي السؤال السؤالا

وهو في كل ذلك يوازن بين حياة الأولين وبين حياة أهل الحاضرة ، موازنة ساخرة يظهر فيها مساوئ حياة الأولين، في مقابل الحياة الجديدة ، فكانت هذه من أهم الثنائيات التي مثلت الصراع الحضاري في العصر العباسي .

- **الصراعات الإيديولوجية وقناع السخرية**

عرف عن العصر العباسي أنه عصر انفتاح العقل العربي على العلوم المختلفة، بعد أن أثبت عبقريته في العلوم الدينية والنقلية من علوم اللغة و التفسير والفقه وغيرها...فعرف الترجمة والمنطق والحساب والطب والفلسفة وغيرها من العلوم العقلية ، وإذا به يدخل مرحلة جديدة من الإبداع يجتمع فيها العلم الديني والدنيوي.

وما ميز هذا العصر أيضا "ظهور علم الكلام ، وتأثر تفسير القرآن الكريم وتفسير الحديث والتشريع بهذا الأثر الفلسفي ، فبدأ العلماء يجتهدون في شرح ما يعرض عليهم بعلل عقلية وعبارات منطقية، خاصة أن أرباب الديانات الأخرى في العصر العباسي يريدون أدلة عقلية مؤسسة على منطق أرسطو.."[44]

وقد ظهرت الفرق المختلفة والمتباينة في المذهب وأخذت كل واحدة تنتصر لنفسها وتنتقص من الأخرى ، ولعلنا نجد هذا الاتجاه واضحا عند الجاحظ، وهو المعتزلي الذي لا يستمع إلا لصوت العقل ، فلجأ إلى نقد المذاهب الفكرية التي لا تتماشى وقناعته، ووسيلته في ذلك طبعا هي السخرية .

وكان منهجه " بأن يدس هذا التهكم دسا دون أن يظهر على بيانه، فبدلا من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضا ويجادلهم جدالا يكتفي بالدلالة على آرائهم والإشارة إلى مذاهبهم " [45]

ومن أمثلة ذلك ما أورده مصورا رأيه في المذاهب التي انتشرت في عصره وقبله، وقد بث هذا النص الحواري على لسان الحجاج قائلا " **قال الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن؟ قال : أمفرق كان فأجمعه ؟ قال : أتقرأه ظاهرا ؟ قال : بل أقرأه وأنا أنظر إليه ، قال : أتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه ؟ قال : ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : لعنه الله ، ولعنك معه ، قال الحجاج : إنك مقتول فكيف تلقى الله ؟ قال : ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمك** "[46]

وكثرت سخريته من العلماء والمفسرين " ولتحكيمه العقل فقد خرج عما يعتقده الجمهور في تفسير بعض الآيات كنقده تفسير رؤوس الشياطين بثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، وتعرض لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة"[47] وهو بدل أن يتهمهم مباشرة بالتقصير يترك المجال للقارئ بأن يحكم عليها .

كما كان يبذل لذلك الجهد والوقت في التأليف والكتابة والتقصي حتى يبث أفكاره بطريقة ذكية ، ومن الكتب التي ألفها في هذا الاتجاه كتاب "الاحتجاج للراوندية " "ولم يصنفه الجاحظ ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية وهم شيعة ولد العباس لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا " [48]

خاتمة وتوصيات :

بعد هذه الجولة البحثية الماتعة حول موضوع الدراسة ، توصلت إلى النتائج الآتية :

1- يحفل أدبنا العربي القديم بخطاب السخرية ذي الأبعاد الجمالية والدلالية الساحرة .

2- أثر الجاحظ تأثيرا كبيرا فيمن جاء بعده ، حيث تحولت معه إلى ظاهرة تقوم على التفسير والتحليل .

3- تحمل الكتابة بالسخرية أبعادا كثيرة ، تتجاوز في أحيان كثيرة غاية الإضحاك إلى تبليغ الرسائل والقناعات

4- كثيرا ما نجحت الكتابة بالسخرية في تحقيق مقصدية الخطاب من خلال أساليبها وطرائقها المتعددة، فهي فن قادر على التلاعب طبيعة الأشياء وصولا إلى غايتها .

5- بالرغم من مكانة الكتابة بالسخرية وفاعليتها إلا أنها تصنف ضمن الآداب الهامشية ، والكتابات غير الرسمية ، ولهذا لم تلق الاشتغال الكافي في أدبنا العربي قديما خاصة .

الهوامش :

[1] ينظر، لسان العرب لابن منظور، تاج العروس للزبيدي ، الصحاح للجوهري ، والمعجم الوسيط للفيروز أبادي .(مادة سخر)

[2] عبد الرحمن محمد محمود الجبوري ، السخرية في السحر البردوني ، دراسة دلالية ، المكتب الجامعي الحديث ، جامعة كركوك ، دط ، 2011 ، ص11

[3] شوقي ضيف ، الفكاهة في مصر، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، دت ، ص 10.

[4] المرجع نفسه .

[5] ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص15

[6] بتصرف ، نعمان محمد أمين طه ، السخرية في الأدب العربي ، دار التوفيقية للطباعة والنشر ، الأزهر ، ط1 ، 1978 ، ص24

[7] بتصرف ، المرجع نفسه .

[8] المرجع نفسه ، ص27

[9] هشام صويلح ، القصدية مبحث فلسفي تداولي ، من فلسفة العقل إلى فلسفة الكلام – جون سيرل نموذجا – مجلة تاريخ العلوم ، سكيكدة ، ع8 ، جوان 2017 ، ص 33

[10] روي أن حجرا والد امرئ القيس قد أقام في كندة فترة من الوقت بعد أن استجار عوبر بن شحنة لابنته وأهله ، فاستقطب خلالها أناسا يقفون من ورائه ، وسار بهم لمحاربة بني أسد الذين اجتمعت كلمتهم على محاربته تحت قيادة علباء بن الحارث ، فحمل على حجر وقتله ، وبذلك انهزمت كندة ولم تقم لها قائمة بعدئذ، وكان ممن هرب منها امرؤ القيس بن حجر ، بتصرف ، زكريا صيام ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1981 ، ص 170

[11] أبو هلال العسكري : جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ، ج1 ، ص 214

[12] الطفيلي هو من يغشى الناس ابتغاء الأكل من غير استدعاء ، وقد جمعت قصصهم في كتاب التطفيل للخطيب البغدادي ، والأذكياء لابن الجوزي وغيرهم .

[13] بديع الزمان الهمذاني ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، المقامة الساسانية ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة الأزهرية ، 1923، ص102

[14] عبد الله فكري ، كتاب نظم اللآل في الحكم والأمثال ، شرح عبد المعين ، دمشق ، ص 29

[15] عبد الحليم محمد حسين ، السخرية في أدب الجاحظ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا ، ط1 ، 1988 ، ص 93-94

[16] المدائني العلامة الحافظ الصادق أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني الأخباري ، نزل بغداد وصنف التصانيف وكان عجبا في معرفة السير والمغازي والأنساب وأيام العرب مصدقا فيما ينقله عالي الإسناد، ولد سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، نشأ بالبصرة ومات في سنة أربع وعشرين ومئتين وكان عالما بالفتوح والمغازي والشعر، صدوقا في ذلك ، مات في دار إسحاق الموصلي ، مصنفات المدائني كثيرة منها : تسمية المنافقين ، خطب النبي عليه السلام كتاب فتوحه، كتاب عهوده، كتاب أخبار قريش، أخبار أهل البيت ، من هجاها زوجها، تاريخ الخلفاء ، خطب علي، وكتبه أخبار الحجاج، أخبار الشعراء ، قصة أصحاب الكهف سيرة **ابن سيرين** ، أخبار الأكلة ،كتاب الزجر والفأل ، كتاب الجواهر...ينظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي .

[17] أحمد بن علي القرني ، ما رواه النقلة من أخبار الأكلة ، سلسلة الشماريخ من لطائف التاريخ ، 1442هـ ص 07

[18] أبو عبيدة معمر بن المثنى، التميمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة؛ قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وقال ابن قتيبة فيه ولم يزل يصنف حتى مات؛ وتصانيفه تقارب مائتي تصنيف: فمنها كتاب "مجاز القرآن الكريم" وكتاب غريب القرآن ، وكتاب معاني القرآن، وكتاب

غريب الحديث، وكتاب الديباج ،وكتاب التاج ،وكتاب الحدود، وكتاب خراسان وكتاب خوارج البحرين واليمامة، وكتاب الموالي، وكتاب البله، وكتاب الضيفان ،وكتاب مرج راهط، وكتاب المنافرات، وكتاب القبائل وكتاب لصوص العرب وغيرها ، ينظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان .

[19] ابن قتيبة ، المعارف ، ص 243

[20] أبو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي (**163– 255هـ**) الشهير بالجاحظ ،كبير أئمة الأدب ، من آثاره : البخلاء ، المحاسن و الأضداد ، البيان و التبيين ، الحيوان ، الزركلي ، الأعلام ، ج5 ، ص74 .

[21] الجاحظ ، البخلاء ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ص06

[22] الكميت بن زيد الأسدي ، الديوان ، شرح وتحقيق نبيل الطريفي ، دار صادر ، بيروت . لبنان ، ط1 ، 2000 .

[23] الأخطل ، الديوان ، ص07

[24] أحمد الشايب .، تاريخ النقائض في الشعر العربي ، مكتبة النهضة ، ط4 ، ص02

[25] أدونيس ، زمن الشعر ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1986 ، ص29

[26] أبو عبيدة معمر بن المثنى ، شرح نقائض جرير والفرزدق ، تح محمد إبراهيم حور و وليد محمود خالص ، نشر المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط2 ، 1998 ، ج3 ، 127

[27] جرير ، الديوان ، شرح محمد بن حبيب، تح نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ص52-53

[28] المصدر نفسه ، ص32

[29] أبو عبيدة ، شرح النقائض ، ج2 ، ص514

[30] جرير ، الديوان ، ص 59

[31] جرير ، الديوان ، ص157

[32] أبو البقاء الزمخشري ، شرح المفصل ، مج ، ص131

[33] أبوعبيدة، شرح النقائض ، ج2 ، ص386

[34] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1984 .ج12 ، ص189

[35] محمد علي كرد ، أمراء البيان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2012 ، ج2 ، 402

[36] مصطفى الغرافي ، السرد والمضمر ، دراسة في أخبار ابن قتيبة ، موقع إلكتروني https://platform.almanhal.com/Files/2/79402

[37] ابن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، 1418 هـ ، ج1 ، ص145

[38] المصدر نفسه ، ج2 ، ص157

[39] محمد بن يحي صولي ،كتاب الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ، مطبعة الصاوي ، ط1934 ، ص112

[40] ديك الجن الحمصي ، الديوان ، جمع وتحقيق أحمد مطلوب ، عبد الله الجبوري، دار الثقافة ، بيروت ، ص132

[41] حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، ص104

[42] أبو نواس ، الديوان ، ص134

[43] المصدر نفسه ، ص 673

[44] أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط10 ، د ت ، ص9

[45] الجاحظ ، شفيق جبري ، نقلا عن السخرية في الأدب العربي ، ص 164

[46] الجاحظ ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الخانجي ، ج2 ، ص149

[47] السخرية في الأدب العربي ، مرجع سابق ، 164

[48] المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ، ص168

قائمة المصادر والمراجع :

1. **ابن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، 1418 هـ ، ج1 ،**
2. **أبو عبيدة معمر بن المثنى ، شرح نقائض جرير والفرزدق ، تح محمد إبراهيم حور و وليد محمود خالص ، نشر المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط2 ، 1998 ، ج3**

3. أبو هلال العسكري : جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ، ج1 .
4. أحمد الشايب ،، تاريخ النقائض في الشعر العربي ، مكتبة النهضة ، ط4
5. أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط10 ، د ت
6. أحمد بن علي القرني ، ما رواه النقلة من أخبار الأكلة ، سلسلة الشماريخ من لطائف التاريخ ، 1442هـ
7. أدونيس ، زمن الشعر ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1986 ،
8. بتصرف ، نعمان محمد أمين طه ، السخرية في الأدب العربي ، دار التوفيقية للطباعة والنشر ، الأزهر ، ط1 ، 1978
9. بديع الزمان الهمذاني ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، المقامة الساسانية ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة الأزهرية ، 1923، .
10. الجاحظ ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الخانجي ، ج2
11. جرير ، الديوان ، شرح محمد بن حبيب، تح نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
12. حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ،
13. ديك الجن الحمصي ، الديوان ، جمع وتحقيق أحمد مطلوب ، عبد الله الجبوري، دار الثقافة ، بيروت ،
14. زكريا صيام ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1981 .
15. شوقي ضيف ، الفكاهة في مصر، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، دت .
16. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1984 .ج12
17. عبد الحليم محمد حسين ، السخرية في أدب الجاحظ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا ، ط1 ، 1988
18. عبد الرحمن محمد محمود الجبوري ، السخرية في السحر البردوني ، دراسة دلالية ، المكتب الجامعي الحديث ، جامعة كركوك ، دط ، 2011 ،
19. عبد الله فكري ،كتاب نظم اللآل في الحكم والأمثال ، شرح عبد المعين ، دمشق .
20. الكميت بن زيد الأسدي ، الديوان ، شرح وتحقيق نبيل الطريفي ، دار صادر ، بيروت. لبنان ، ط1 ، 2000 .
21. محمد بن يحي صولي ،كتاب الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ، مطبعة الصاوي ، ط1934 ،
22. محمد علي كرد ، أمراء البيان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2012 ، ج2 ،
23. المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية
24. مصطفى الغرافي ، السرد والمضمر ، دراسة في أخبار ابن قتيبة ، موقع إلكتروني
25. https://platform.almanhal.com/Files/2/79402
26. هشام صويلح ، القصدية مبحث فلسفي تداولي ، من فلسفة العقل إلى فلسفة الكلام – جون سيرل نموذجا – مجلة تاريخ العلوم ، سكيكدة ، ع8 ، جوان 2017 ،
27. ينظر، لسان العرب لابن منظور، تاج العروس للزبيدي ، الصحاح للجوهري ، والمعجم الوسيط للفيروز أبادي .(مادة سخر)